مـــا نـــشـــره الـــراحل في (المـــدى)

عـــــودة مـــن المـــنـــفـــى*

كـــامل شـيـــاع

عدت إلى العراق قبل عامين، تاركاً ورائي قرابة خمسة وعشرين عاماً من الهجرة القسرية. تلك العودة إلى ما حسبته ملاذي الآخر أو الأخير، عللتها لنفسي بأن فصلاً من حياتي صار ماضياً ينبغي طيّه فطويته، وأن فصلاً آخر قد فتح إحتمالاته، على مصراعيها، أمامي فاستجبت إليه. لم أقصد أن أكون مغامراً حين مضيت في رحلة العودة التي لم أتخيلها منذ البداية نزهة في عالم الأحلام، ولم يأخذني إليها حماس رومانتيكي. لقد شعرت فقط بأنني مدعو لرحلة نحو المجهول، وفي ذلك يكمن سر أنجذابي اليها.

رحلة العودة وضعتني شيئاً فشيئاً إزاء اختيارات صعبة لم أكن أعي دلالاتها أو أقدر أبعادها، وحررتني من الارتباط بمكان محدد على حساب الزمن الخاص للتجربة الذاتية، واوقفتني بعيداً عن الأفكار المجردة حول التاريخ العام لأكتشف تنوع التاريخ المحلي وتعقيده وإلتوائه. ومن يبحث، يجد!.

بجانب التجربة الفعلية والتاريخ الحي، وضعتني هذه الرحلة وجهاً لوجه أمام موت جارف ، وشيك وعبثي. لا اعني هنا بالطبع أفكاراً أو أخيلة أو هواجس تستبق حدث الموت الرهيب، بل حقائق ملموسة يمتزج فيها الموت بالحياة ويتلازمان في كل لحظة. الموت في مدينة كبغداد يسعى إلى الناس مع كل خطوة يخطونها، فيما تتواصل الحياة مذعورة منه أحياناً، ولا مبالية إزاءه في أغلب الأحيان. ما أكثر لافتات الموت السود في المدينة؟ كم من الناس واسيت بفقدان أب أو إبن أو أخ أو قريب؟ كم مرة قصدت مجالس التأبين معزياً؟ كم مرة وجدت نفسي عاجزاً عن إظهار تعاطفي مع ذوي الضحايا البريئة المجهولة لي؟ كم بكيت في سري حزناً على مشاهد الدماء المسفوكة في كل مكان؟

بعد هذا الإنغمار المكثف في وقائع الموت وأخباره، يسألني البعض أحياناً، ألا تخاف من الموت؟ فأجيب، أنا الوافد أخيراً إلى دوامة العنف المستشري، أعلم أنني قد أكون هدفاً لقتلة لا أعرفهم ولا أظنهم يبغون ثأراً شخصياً مني، وأعلم أنني أخشى بغريزتي الإنسانية لحظة الموت حين تأتي بالطريقة الشنيعة التي تأتي بها، وأعلم أنني قبل ذلك كله كثير القلق على مصير أخي ومرافقي الذين بملازمتهم لي في سكوني وحركتي يجازفون بحياتهم وحياة عوائلهم. برغم ذلك كله، وبمقدار ما يتعلق الأمر بمصيري الشخصي، أجد نفسي مطمئناً عادة لأنني حين وطأت هذا البلد الحزين سلمت نفسي لحكم القدر بقناعة ورضى. وما فعلت ذلك كما يفعل أي إنتحاري يسعى إلى حتفه في هذا العالم وثوابه الموعود في العالم الآخر، فالقضية بالنسبة لي تعني الحياة وليس الموت. وهذه الحياة ينبغي ألا تكون بالضرورة آمنة شرط أن تشبع الرغبة في الوجود والفعل والانغمار.

منذ سنوات وأنا أعتقد، ربما بعد قراءة جان بودريار، بأن النهاية حاصلة في الحاضر. إنها تلازمنا في كل لحظة نعيشها. وحين ندرك ذلك، لا يعد هناك ما يستحق الانتظار. غير أن تسليم النفس للنهاية ... ليس استسلاماً، إنه بداية السير نحو التخوم أو بينها ..... هناك حيث تتقلص المسافات. وعليّ أن أعترف في بأنني لم أكن غير مكترث بالموت دائماً. فبعد إغتيال بشع لأحد الرفاق في شقته، صرت للمرة الأولى أنام وبجانبي مسدس جاهز للإطلاق. الأسلوب الشنيع لتعذيب ذلك الرفيق والتمثيل الوحشي بجسده، تركني لليال عديدة عرضة لكوابيس مرعبة. أي إرادة تمكنني من إيقاف انثيالات العقل الباطن، والتشبث غير الواعي بالحياة؟

عندما أتخيل الآن الحدود الدنيا والقصوى لهذه التجربة، أجد نفسي مسكوناً بروح متقشفة... روح بالحد الأدنى تقبل الواقع كما هو، ولا تسند لنفسها سلطة معرفية كبيرة أو تسقط عليه أوهامها أو تجرفها إحتمالاته القصوى. هذا كما أعتقد ثمن الاقتراب من التاريخ كمادة حية، كحالة هشة في طور التشكل والإندثار. فلا تجربة حقيقية دون تفاصيل جزئية وملموسة.... دون إزاحة أو تأجيل.

للعودة من المنفى، في حالتي، سبب عاطفي أكيد. إذ وجدت نفسي في علاقة لا أقوى على إستبدالها أو تعويضها. إنها العلاقة مع الوطن كمجموعة من البشر، والتقاليد، الأمكنة، كفضاء من ضوء وهواء، من فوضى وخراب وألم. بعد أن جربت هذه العلاقة صرت متيقناً من جدواها ومعناها بوصفها حقلاً للممارسة اليومية والفكرية، لكنني لم أزل أشك بأن حب الوطن من صنف الفضائل!. فقد يهيم المرء حباً بوطنه، المصنوع من صور وخيالات، وهو بعيد عنه، وقد لا يقيم لنفسه علاقة إخلاقية معه وهو يعيش في داخله، وقد يخدم بعضنا الوطن من موقف متجرد إلا من الوازع الإنساني، وقد يدمره آخر يتشدق بإسمه ليل نهار. ما هو ثابت في الوطن كأرض وتاريخ لا يلزم الجميع بالتماهي التام معه أو التساوق مع حركته وتحولاته. وهكذا فأن ضعف الحماس للوطن أحياناً لا يدخل في باب الرذيلة أو الخيانة.

الوطن محطة في حياة الإنسان تتفرع منها جميع المحطات الأخرى التي قد تؤدي إليها أو لا تؤدي، لكنها تحكمنا، بقوة شبه قدرية، بأن نظل متعلقين بها رمزياً حتى لو هجرناها فعلياً، أن نظل مشدودين إليها بقرابة دم حتى لو أودعنا مصائرنا خارجها.

ليس في عودتي من المنفى نكوص نحو الماضي، استبدال نمط حياة "متخلف" بآخر متطور، تفضيل عالم عنيف حدّ الهمجية على عالم مهذب ومتحضر، وهجر السلامة والأمان لإرتياد مكان مجهول في "قلب الظلام"... ظلام التاريخ. إذا كانت هناك عودة بالنسبة لي فهي مغادرة تجربة استنفدت نفسها تدريجياً، كسر شرط حياتي غدا عادياً بغية إكتشاف ما هو غير مألوف أو مضمون. هذه الهجرة المعاكسة لا تفترض مسارات محددة، ولا ترتكز على ثنائيات ثابتة من قبيل الوطن/ المنفى، الداخل / الخارج، الشرق/ الغرب، الهوية/ الآخر..... وهي كذلك لا تفترض حركة بشوطين واحد للذهاب وآخر للإياب كما توحي قراءة رحلة يوليسيس التي يعدّها البعض الصورة النمطية للسرد، ولا تأخذ طابع علاقة مغلقة للنفي ونفي النفي والتركيب. فلرحلة النفس في الزمن مستويات عدة وتفرعات شتى. ولأنها مقبلة دائماً على أفق مفتوح يمكن أن يمضي بها العد إلى أكثر من ثلاث مراحل.

عدت إلى العراق قبل عامين، لأدرك أنني بلغت غاية ما صبوت إليه: أنهاء شعوري بالسأم من الإكتفاء بعد سنوات الهجرة، من البقاء بعيداً عن وطن طالما تخيلته جميلاً وأنيساً برغم جنونه وقسوته، ونزع ثوب الغربة عن نفسي لأرى الواقع كما هو عارياً من اغلفته وبريقه، النطق بلغة المقيم في الوادي لا المتطلع من أعلى التل، والتعايش بأدنى التوقعات مع مواطن البؤس والغرابة والقسوة.

عدت إليه فوجدته يمضي في متاهة تاريخية، لا يمكنها أن تكون إلا مؤقتة. وأنا أحد شهودها: أعيش تذبذباتها، أراقب تقلباتها، أتفاعل مع تفاصيلها، وأثير أسئلة حولها، وأراجع قناعات بشأنها، وأكوّن أحكاماً عنها. أنني منغمر بتجربة غيّرت حساسيتي إزاء كل ما يحيط بي. فما عادت تستوقفني كثيراً الأفكار المسبقة والمقارنات الجاهزة والرغبات التي تعظ بما ينبغي أن تكون عليه حالة الأشياء. وبرغم أن الحلم السياسي الذي أسرني ظل هو هو ، صرت أشعر بالقرف من كل خطاب سياسي يعمد إلى إجترار عذابات الضحية، التنكر من المسؤولية عن الماضي، إستغلال الرضوض النفسية التي تستفز الأحياء أو تخطف منهم وعيهم.

كل ما أبحث عنه وسط هذا الضجيج الزائف هو الهدوء، الصدق، ورفعة الشأن العام.

العراق فتح ذهني وقلبي لسطوة الحاجة الآسرة القاسية على ناسه. وهو، كما يبدو لي الآن، حالة مثالية لفهم ما يجري في العالم بأسره. فلأنه بلغ القاع صار يتيح، بشكل أفضل، رؤية منابع الحروب والهمجية والمصالح الأنانية، الكذب والفساد والعنف والنسيان المتعمد للحقيقة أو السهو عنها. كل، من موقعه، مهموم بالعراق ومتورط فيه:أميركا العظيمة المتجبرة والسطحية، الديمقراطيات الغربية المرتبكة، الشعبويون من كل الأنواع، حاملو الشعار اليساري، اليمينيون والمحافظون، العروبيون، الأصوليون، تجار الموت، رجال الأعمال،حاملو ألوية العصبيات الخادعة.....كل خبر يأتيني عن بؤس هذا العالم وتعاسته يحيلني الى "مستعمرة" سوء إسمها العراق.. هي درجة الصفر التي لا موقع لها على خرائط المكان أو مقاييس التجربة، لكنها تتيح، في الوقت نفسه، فهم أوجه الزيف في عمارة زمننا الماضي في مسارات مجهولة.

عدت إلى العراق بعدما اكتشفت أنني شخص دون مشروع خاص. في السياسة كما في الثقافة مشروعي مرتبط بالجماعة، فلا فعل ولا حضور دون مشاركة وتضامن.

عدت من المنفى وأنا مدرك أن لا عودة لي منه لأنه يجدد نفسه في كل تماس مع ما هو مألوف أو غير مألوف. وسوف تلازمني أشباحه كما لازمتني أشباح الوطن.

كل إنسحاب من المنفى تعميق لجذوره وتمويه لخفاياه. أي أوجاع سرية يورث المنفى، أي شفاء يحمل الوطن؟

*المدى تشرين الثاني ٢٠٠٥

الى مـــن نـلـجـــــأ؟

سهيل سامي نادر

لماذا اغتالوا هذه الحمامة ؟ كل من عرفه حقا شبّهه بحمامة . لكن ما الذي تفعله حمامة في ارض يتجادل فيها الناس بالمسدسات ؟ ما الذي يفعله مهذب في ارض الكذب والنفاق هذه ؟ ما الذي جعله يعمل في وزارة كان أدعياء الثقافة يقودونها من يوم ولدت ؟

كنا نتجادل دائما بشأن عمله . كنت انصحه ان يغادر . فما الذي يفعله مثقف متعدد المواهب في هذا الركن الغبي الذي استولت عليه المحاصصات الغبية وبات دكانا للمتحاصصين وتجار الدجاج والسجاد والاسلحة ؟

لسبب لا افهمه بدا عليه انه قدم وعدا . انني اتفهم : العمل في الجرائد الصفر ! حذلقة لينينية قديمة انقضى زمانها وولى . هل هذا يشبه ذاك؟ العمر انقضى بالقصور الذاتي . هذه اللعبة لم تنجح دائما ، فهي متصلة بحالة غامضة يتوصل لها الحدس السياسي ويعاملها كرهان. هنا في العراق لا ينجح غير المنتحرين بالانتحار ، لا ينجح غير المتزلفين والمرضى النفسيين والسياسيين الذين يضعون (البازبند) ، والمتظاهرين بالفكر ، وقردة السلطة وشعرائها ، والخونة ، والعملاء ، والجهلة الذين لا يجيدون غير ضرب الناس واغتيالهم ، ورافعي الشعارات والهتافين ، والقوميين الذين يتكرمون بأراضي الامة للاعداء ، والمجاهدين الذين يذبحون الفقراء ويقبضون ثمن جهادهم. أما كنت تعرف هذا أيها الصديق العزيز وأنت الذكي اللبيب؟

كنت تحب ان تجادل الرجال الاحرار . تصمت اذا ما كنت مع جهلة . ابدا لا تجلس مع الحمقى والاقوياء واصحاب العضلات والمسدسات والرشاشات ، بلا حقد ، بلا تعصب ، بلا عروض ارادة ، بلا صخب ، خجول خجل عذراء ، خجول من اي طموح ظاهر ، وبالطبع كنت تخجل من طموحات الاخرين الغريبة . فلماذا لم تفهم انك الشخص النموذجي لكاتم الاصوات والانفاس؟

هل اغتيل لأنه شيوعي ؟ كنت صديقه ، ولم اعرف إن كان شيوعيا حقا . وما كان يعنيني لكي يكون صديقي وعزيزي لو كان بعثيا او قوميا او اسلاميا . ما تعني هذه الكلمات ازاء روح جميلة وأخلاق كريمة ؟ وما يعني أن يكون المرء شيوعيا في هذا الزمان؟ هو يعرف إن هذا لم يعد يعني الكثير . لم يكن يجادلني عندما كنت اهاجم السياسة الشيوعية ، والاخطاء التي ما زالت ماكثة بسبب قصور ذاتي مخيف . كان يهز رأسه كما لو انه يقول : نعم .. نعم .. هذا صحيح . لكن ! واحتج أنا على هذه (اللكن) التي لا تقول شيئا فيوافقني . كان دائما يمتلك فكرتين في آن : فكرته هو التي تكاد تشبه اقتراحا من الاقتراحات ، وفكرة خصمه التي يجب ان يعيد انتاجها في خبرته وحياته . كنت أحب هذا منه . وكان هو من يذكرني بالمفكر الفرنسي بول ريكور وكتابه اليوتوبيا والاديولوج يا ، حيث يؤسس ريكور من قراءات متعددة رأيه التركيبي ، من دون مواجهات مضحكة ولا شتائم ولا العاب ذكاء . ونتحدث عن الكتاب ويذكرني وأذكره ، وننهي ما بيننا من جدل حين اقول له انه بات من جماعتي (الفينومينولوجيون) . يضحك وأضحك وينتهي كل شيء .

من اغتاله عرف هذه القوة التي يمتلكها . وحده من يمتلك هذه القوة يستحق صاحبها الموت في عراقنا هذا . هذه القوة التي لا يمتلكها السياسيون العراقيون ، ولا الحزبيون، ولا اصحاب المبادئ القتلة الذين يعج بهم العراق. قوة نعم ، وأفضل انواع القوى . القوة التي تشيع الدفء والاحساس بالجمال ، قوة الترفع على الصغائر ، قوة الاخلاق ، المسامحة ، الكرم ، الشرف ، الحب ، الوطنية العراقية الحقة ، الثقافة المتعددة المفتوحة ، الموهبة.

من نخاطب بأخذ حق هذا الدم المهدور ؟ الى من نلجأ ؟ المثقفون بلا ميليشيات ، ولا اخوان في الشرطة ، ولا أحباب في الحكومة ، ولا اصدقاء في جيش الاحتلال .. ولا اقرباء في الغرب ، ولا خلان في الشرق . اللعنة !

فجيعة مؤلمة لكلّ المثقفين العراقيين

د. سيّار الجميل

صعقني خبر مصرعك الدامي ايها الصديق العزيز كامل شياع .. واهتز لاغتيالك الأثم كل المشهد الثقافي العراقي .. وبكى عليك كل من عرفك عن قرب .. وعرف مزاياك العراقية الاصيلة .. لم تكن مثقفا ملتزما ومنظما حسب ، بل كنت انسانا عراقيا طيبا غاية الطيبة .. يتلمس سجاياك الكريمة كل من عرفك ورآك ، بل وتداول اسمك كل المثقفين العراقيين .. كنت امينا على موقعك الثقافي ببغداد منذ سنوات وانت تعمل ليل نهار في خط النار من اجل العراق .. ان الحزن العارم على رحيلك الذي اراده لك المجرمون .. هو رسالة مؤلمة تخبرنا انك لم تكن مستشارا في وزارة يسمونها وزارة الثقافة ، بل كنت مثقفا اصيلا ، وانسانا قلما يجود الزمن بمثله .. لقد بكيتك بحرقة بالغة لأنني عرفتك ، وكنت سعيدا جدا بمعرفتك .. وجدت فيك وانا اجالسك طعم العراق ، وروح العراق ، وقيم العراق ، وشموخ العراق ..

كنت تصغي رفقة الاخت العزيزة ميسون الدملوجي الى محاضرتي في " بنية الثقافة العراقية " قبل قرابة ثلاث سنوات ولم تفارقك ابتسامة المحب العاشق لثقافة العراق المتجددة .. ومن يعشق ثقافة العراق ، يلتصق بتراب العراق ، وماء العراق ، وهواء العراق .. وكنت معك جنبا الى جنب على مائدة عشاء ، وانت تحدثني عن متغيرات ثقافة العراق وما يمكن عمله من اجل مستقبل اجيال العراق الجديدة .. كنت تحدثني عن المتوحشين الذين يريدون قتل ثقافة العراق ، ومحو حداثة العراق ، وهتك كل ابداعات العراق بطقوسهم البالية ومهرجاناتهم المضحكة .. كنت تشتكي لي من مكابدات تعانيها وانت في وزارة الثقافة وعلى رأسها " وزير " متخلف لا يعرف معنى " ثقافة " ! كنت تنقل لي مشهد العراق المرّ ، والالم يعتصرك لما آل اليه وضع العراق .. وعندما قلت لك : اني اخاف عليك من كل هذه الامواج اللعينة التي طفت كالجراد على كل الحياة .. ابتسمت ، وقلت : لقد اخترت العراق ، ولن ارحل منه ابدا ، وسأبقى التصق بترابه حيا او ميتا ! بقيت تراسلني .. بقيت تكتب لي واكتب اليك .. بقيت تسألني وأسألك .. تجيبني واجيبك .. تحدثني واحادثك .. تبلغني سلام الاصدقاء واقرئهم وأياك كل السلام .. كم ناشدتني ان اكتب لك مقالا او خطابا لنشره ، وكم طلبت مني ان ازور العراق؟

لقد خسرناك يا اطيب الاصدقاء ، وافتقدك العراق ، ورحت مغادرا قسرا ميدان حياة العراق ، وهو في امس الحاجة اليك في بحر هذه الايام. قتلك الجناة القتلة في لحظة دموية بائسة على جسر محمد القاسم ببغداد ، وفروا الى المجهول ليبكي عليك كل المثقفين العراقيين في يوم مذهل ينبغي ان يمثل في ذاكرتهم كل انحدار العراق ومأساة هذا الزمن الغادر .. ان صوت المثقفين العراقيين لابد ان يعلو على كل الاصوات المنكرة والمرتزقة واللقيطة والغادرة والمنافقة والمتردية التي لا تعرف الا الظلام الاسود ولا ترى العراق الا من خلال العواصف الهائجة .. ان صوت المثقفين العراقيين ليكن حرا وشجاعا بوجه كل الصامتين من السياسيين المتخلفين الذين لم يجدوا مكانا لهم الا في المنطقة الخضراء. ماذا جنى كامل شياع بحق السماء كي يغتاله الغادرون ؟ ماذا فعلتم بقوافل الذين رحلوا من اجل العراق وهم احرار ابرياء. حتى يقتل كامل شياع ؟ كم وجدتك مثقفا حقيقيا ، غزير المعلومات ، عميق الرؤية وانت تتوغل في الثقافة الانسانية ؟ كم وجدتك تتبارى معي في عشق الموسيقى العالمية ؟ كم وجدتك تهوى دجلة والفرات .. والنخلة وعنبر شامية المشخاب ؟ كم وجدتك رقيق الحاشية ، عذب اللفتات ، هادئ الطبع ، سريع البديهة .. ساحر الكلمات ؟ كم وجدتك تقدميا تهوى الفكر المعاصر ، وتسمو بالحداثة على مختلف الجبهات ؟ كم وجدتك نزيها نظيفا .. وانت تسير على نهج من سبقك من المناضلين العراقيين واثقي الخطوات ؟ كم وجدتك انسانا حرا تريد العراق حرا ومتطورا وموحداً .. لا ينال منه الطغاة ، وان يكون شعبه فوق كل الشبهات ؟ كم وجدتك متواضعا ، دائم البسمة ، تحلم بالعراقيين تزدهر اجيالهم بكل المستويات ؟ كم وجدتك اكبر من كل اولئك الجهلة الذين يتربعون على كل الاطباق وفوق كل الركامات ؟ كم وجدتك متغايرا .. تتقبل الافكار والاراء المختلفة وتؤمن بالديمقراطية والسلم والامن وقوى الانتاج بعد كل ما مضى من صراع الطبقات ؟

قتلوك لأنك اكبر منهم ، واطيب منهم ، واسخى منهم ، واشجع منهم .. وانهم لمنتهون حتما الى مزبلة التاريخ .. ان عداءهم للثقافة الحية والنهج القويم .. جعلهم لم يلجأوا للغدر بك حسب ، بل لاقتراف جريمة غادرة بحق كل المثقفين العراقيين .. فقتلك هو قتل لكل المثقفين الحقيقيين ، من حيث يشعرون او لا يشعرون .. ولكن لن نسكت ابدا ، ولن يسكت صوت المثقف العراقي اينما كان في هذا الوجود .. سيبقى صامدا مع كلمته وخطابه وموقفه الخصم اللدود لكل اللقطاء والطفيليين والارهابيين وانصاف المتعلمين. ان دمك يا كامل سينير الدرب امام الاجيال العراقية القادمة ، ويعلمهم بأنه قد سفح من رجل مثقف ملتزم قبل ان يسفح من سياسي مناور.

ان نضالك في اعماق الغابة الموحشة سيبقى صفحة بطولية ناصعة ، ورمزا لعهد يتساقط فيه خيرة العراقيين، من دون ان يتحرك أي مسؤول من المسؤولين عن البلاد لعمل شيئ حقيقي مضاد ازاء استفحال هذا الجحيم . ان برقيات التعاطف وابداء الأسى لا تكفي ابدا ، فهي بمثابة اعتراف بالصمت القاتل على تصفية كل المثقفين العراقيين الرائعين . ان التمادي باخفاء الاسرار ، او التغطية عليها ، او التعتيم على المعلومات والتحقيقات والتستر على كل اوراق الجنايات الفاضحة.. يبطن من ورائه خفايا سياسية نطالب بالكشف عنها عاجلا. ان المثقفين العراقيين لا يمكنهم ان ينتظروا التصفيات تنالهم الواحد بعد الاخر. انهم لا يقبلون ابدا ان يعبث بمصيرهم بعد ان تم العبث والجريمة المنظمة بالاكاديميين والصحفيين العراقيين .

انني اناشد كل المثقفين العراقيين ان يقفوا صفا واحدا من اجل ابقاء كلمتهم ، واتساع خطابهم ، وصلابة مواقفهم، انني اناشدهم بهذه المناسبة المؤلمة ، ومهما كانت اتجاهاتهم السياسية ، وميولهم الفكرية ، ونزعاتهم الايديولوجية ، ان يطالبوا الحكومة العراقية باتخاذ الاجراءات اللازمة ليس لحمايتهم انفسهم ، بل بنزع كل الاسلحة من ايادي العراقيين ، وحل كل عصابات المرتزقة ، وميليشيات الاحزاب ، والجيوش غير الرسمية ، وفرق الموت الارهابية وان يسري العمل بالقانون الصارم ضد كل القتلة والمجرمين والعابثين والارهابيين، وكل عصابات الدمار والخراب .

وأخيرا ، دعونا نقف زمن حداد لمصرع صديقنا جميعا الشهيد الاستاذ كامل شياع ، مستوحين من هذه المناسبة المؤلمة الدرس بأن ما يجري في العراق اليوم هو الخطر الذي سيأخذه الى الدمار ، فهل نحن بمدركين لسوء المصير . سيبقى اسم كامل شياع ، محفورا في ذاكرتنا العراقية شعلة متوقدة ورمزا وطنيا، وسنذكره دوما بطيبته وبساطته، بثقافته ومنتجاته، باخلاصه ووفائه وحبه للعراق .

وداعاً كامل!

مصطفى الكاظمي

هناك نوع من البشر تقترب منهم أكثر كلما اختلفت معهم، والشهيد كامل شياع من هذا النوع.

يتأتى ذلك من سعة أفقه وعمق ثقافته وإنسانية نظرته المشبعة بروحه العراقية، أولاً وأخيراً، فهو المثقف الذي تزخر ذهنيته بثقافة السلام والمدنية وبأحلام المواطن الحر الذي أراد للعراق صورته المشرقة برغم كل الصعاب.

التقينا في مناسبات عديدة، فكانت حواراتنا، على قصرها، تشبه البرقيات السريعة وكان يفهم إشاراتي ورؤوس أقلامي بفطنة الإنسان الحساس وذكاء المثقف المرهف.

عندما التقينا في مؤتمر المثقفين العراقيين الاول في بغداد عام ٢٠٠٥، بينما كان الصدام الطائفي في ذروة عماه وظلاميته، كان كامل يتلقى اقتراحاتي وأفكاري بارتياح مشوب بالخوف وإن لم يخل من روح الدعابة عندما همس في أذني: استعد لتكون بين المهمشين!

وكان يعني ما يقول بشأن أصحاب المواقف التي لا تنسجم مع الطروحات الثقافية أو السياسية أو الفكرية السائدة، في السر أو العلن.

.. وإذ يحمل كل منا فكراً خاصاً به يختلف عن الآخر، فإن أسباب اقترابنا من بعض كانت أكثر من أسباب ابتعادنا، حتى صار هذا الاختلاف مساحة لبلورة مشاريع وبرامج عديدة من بينها التداول والحلم والتحضيرلإقامة مشروع (متحف الذاكرة).

كان يعجب من بعض ممارساتي غير المتوقعة (بالنسبة له) مثل تهريب المناضل الشيوعي الراحل الدكتور رحيم عجينة إلى إيران أيام حكم صدام.. فهذا يجعلني، حسب ظنه "الإسلامي الأحمر"!

من ناحيتي لم أكن كذلك، فأنا لست سوى مواطن عراقي لا يتردد عن تقديم الدعم لأي جهد وطني معارض في تلك الحقبة السوداء من تاريخ العراق الحديث.

كامل شياع هذا العراقي المخلص لنفسه ولوطنه، وجد في سقوط النظام السابق فرصته لطي صفحة المنفى والتباسات الثقافة المغتربة والمقيمة وقرر أن يلتحق بالوطن مبكراً ليساهم، مع الآخرين، في وضع لمسته الخاصة على لون العراق الجديد وأحلامه المستحيلة.

.. وأنا أتلقى نبأ استشهاده تداعت في خاطري لحظات تلكم اللقاءات والحوارات وقد اختلط فيها مشهد الجريمة الماثلة التي ارتكبها الظلاميون وبقايا الصداميين الذين ما زالوا لا يعرفون غير ثقافة كواتم الصوت التي اشتهروا بها وهم يصفون مناوئيهم بدم بارد وهذا ديدن القتلة العاديين.

بصمات القتلة تدل على أنهم من بقايا دولة كواتم الصوت وأقبية قصر النهاية وفاشيي الانقلابات المشبوهة التي خبرها العراقيون عقوداً.

ماذا سنقول للسيدة زوجته؟

هل شجعناه على القدوم إلى وطنه ليلقى حتفه في هذه الطريقة الهمجية؟

وماذا سنقول لأهله ومحبيه وأصدقائه؟

وهل تكفي كلمات المواساة والتشبث بالصبر والسلوان؟

لقد فقد العراق واحداً من أرق أبنائه المخلصين وأكثرهم تواضعاً وإصراراً على العمل بلا ضجيج ولا أبواق إعلامية ولا حماية خاصة مدججة بالأسلحة.

وداعاً كامل شياع..